في سورة الهمزة

– دراسة بلاغية تحليلية –

أ.م.د.أحمد فتحي رمضان (*)

الخلاصة

يتناول البحث "سورة الهمزة" وهي سورة مكية، وآياتها تسع بالاتفاق، نزلت في جماعة من المشركين من أهل الثراء والجاه في الجاهلية أقاموا أنفسهم للمز المسلمين وسبهم واختلاق الإحدوثات السيئة عنهم. ومن أغراض السورة الرئيسة وعيد هؤلاء المذكورين من المشركين. وهي تشن حربا نفسية ومادية ضدهم تحطم كيانهم وتخلخل مكانتهم انتصاراً للمسلمين... تعرض السورة ذلك بأساليب بلاغية متنوعة تحمل قيماً بلاغية تعمل على إيصال المعاني بحيوية وقوة تأثير.فالأساليب البلاغية ليست فنوناً تجريدية تراد لذاتها، وانما هي دلائل استكشاف الجمال التعبيري والتصويري في السورة الكريمة، وقد حاول البحث إظهار ذلك من خلال تقسيم السورة إلى مقطعين، ومن ثم رصد الظواهر البلاغية في نسيج كل مقطع، ثم النظر في قيمها البلاغية في أداء المعاني والأفكار التي تهدف إليها السورة الكريمة مع ملاحظة التردد الأسلوبي في كل من المقطعين المتماسكين بحسن استهلال وحسن ختام.

(*) قسم اللغة العربية ـ كلية الآداب / جامعة الموصل.

تعريف بالسورة

"سورة الهمزة" مكية، وآياها تسع بالاتفاق [1] وَعدَّت الثانية والثلاثين في عداد نزول السور الكريمة [2]، وروي أن السورة نزلت في جماعة من المشركين من أهل الثراء والجاه في الجاهلية كانوا أقاموا أنفسهم للمز المسلمين وسبهم واختلاق الاحدوثات السيئة عنهم. ومن هؤلاء المشركين: الوليد بن المغيرة المخزومي، وأمية بن خلف، وأُبي بن خلف، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد يغوث، والاخنس بن شَرِيق، وكلهم من سادة قريش من أهل الثراء والازدهار بثرائهم وسؤددهم[3] في المجتمع المكي. وهذا يعني أن الدين الجديد كان يواجه حالة واقعية من بعض المشركين تجاه الرسول صلى الله عليه وسلم وتجاه المؤمنين، فنزلت السورة الكريمة رداً على ذلك في صورة ردع شديد وتهديد رعيب... وهذا يعني أيضا في الوقت نفسه أن القرآن الكريم كان يتابع احداث الدين الجديد والدعوة إليه ويقودها، وكان هو السلاح الماضي الذي يدمر كيد الكائدين، ويزلزل قلوب الأعداء، ويثبت المؤمنين، والسورة الكريمة تحمل في طياتها معنيين كبيرين هما:

- تقبيح الهبوط الأخلاقي وتبشيعه.
- المنافحة عن المؤمنين وحفظ نفوسهم من أن تتسرب إليها مهانة الإهانة، وإشعار المؤمنين بأن الله يرى ما يقع لهم، ويكرهه، ويعاقب عليه، وفي هذا كفاية لرفع أرواحهم واستعلائها على الكيد اللئيم الصادر من كل لئيم[4].

---

(1) ينظر: محاسن التأويل للقاسمي: 9/ 539.

(2) ينظر: التحرير والتنوير: ابن عاشور: 30/ 535.

(3) ينظر: أسباب النزول للواحدي: ص 33، وينظر: لباب النقول للسيوطي: ص 45، وينظر: التحرير والتنوير: 30/ 535.

(4) ينظر: في ظلال القرآن، سيد قطب: 6/ 3972-3973.

غرض السورة

من أغراض السورة الرئيسة وعيد هؤلاء المذكورين من المشركين الذين جعلوا همز المشركين ولمزهم ضربا من ضروب الأذى، وغايتهم صرف المسلمين عن الإسلام ودعوته والرجوع بهم إلى الشرك والكفر(5).

وإزاء هذه الحرب النفسية التي يشنها المشركون تجاه المسلمين لزعزعة إيمانهم وخلخلة نفوسهم، يشن القرآن حربا نفسية ومادية تحطم كيانهم وتخلخل مكانتهم انتصارا للمسلمين...

والسورة تقدم نمطاً من أنماط الأذى الكثيرة التي كان يتعرض لها المؤمنون.... تعرض السورة ذلك بأساليب متنوعة تحمل قيماً بلاغية، تعمل على إيصال المعاني بحيوية وقوة تأثير... فالأساليب البلاغية ليست فنوناً تجريدية تراد لذاتها، وانما هي دلائل استكشاف الجمال التعبيري في السورة الكريمة.

والبحث سيعمد إلى تحليل ذلك وبيانه من خلال الوقوف على دور الظواهر البلاغية في أداء المعاني التي قصدت إليها السورة على نحو فريد.

وقبل تحليل السورة بلاغيا نورد نصها الكريم:

(وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ * الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ * كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ * نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ * إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ)

---

(5) ينظر: التحرير والتنوير: 30/ 535-536.

وارتأيت منهجياً أن أقسم السورة إلى مقطعين، ثم أرصد الظواهر البلاغية في نسيج كل مقطع، ثم النظر في قيمها البلاغية في اداءَ المعاني والأفكار من خلال التردد الأسلوبي في كل من المقطعين المتماسكين بتلاحظات تركيبية مترددة في بنية السورة الكريمة.

التحليل البلاغي

المقطع الأول

يتكون هذا المقطع من ثلاثة آيات تصور أنموذجاً من الناس يتحرك في المجتمع بأخلاقية سلبية هدّامة تعمل على تقويض البنيان السليم الذي تبنى عليه المجتمعات النظيفة، وهذه الأخلاقية تتمثل في مرض اجتماعي سائد. والآيات الثلاث تصور هذا النموذج بصورته الخارجية بحركاته المختلفة المرتسمة على الوجه وأعضاء الجسم، ثم تصوره مجسَّداً بسكناته وحالته النفسية الدفينة، وتصور فكره وطموحه وغاياته في هذه الحياة الفانية، وكل هذه الحركات الخارجية المصورة والداخلية المجسَّدة في الآيات الثلاث تمثل سلاحة الذي يهاجم به الناس ولاسيما أهل الصلاح والفلاح في المجتمع.

وقد حشدت في هذا المقطع فنون بلاغية متنوعة عملت جميعها وتضافرت على إيصال الأفكار والمعاني بحيوية وقوة تأثير، إذ نلحظ دور الظاهرة البلاغية وهي تعمل في نسيج الآيات على نحو فريد معجز تحس معه أن كل حرف ولفظة وجملة قد أدت رسالتها، ثم تتجمع كلها لتأدية المقصد الكبير الذي جاءت السورة من اجله.

تبدأ السورة الكريمة بهذا المقطع والذي تعده استهلالاً غاية في الحسن التعبيري والتصويري. لأنه منطوٍ على المعنى الكبير الذي ينبثق عنه ويتصل به مشهد من مشاهد يوم القيامة وهو (المقطع الثاني) في السورة.

(وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ * الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ)

قال القزويني: "فانك إذا نظرت إلى فواتح السور جملها ومفرداتها رأيت من البراعة والتفنن وضروب الإشارة ما قد أصاب المحز وطبق الفصل" (6)، وذلك لان حسن الاستهلال أن يجعل أول الكلام مناسباً للمقام. بحيث يجذب السامع إلى الإصغاء بكليته، لأنه أول ما يقرع السمع وبه يعرف مما عنده (7)، وقد أكد البرغيون والنقاد ذلك، ووضعوا لحسن الاستهلال شروطا من حيث غايته التعبيرية ومن حيث ملاءمته وانسجامه مع بقية النص (8) وحددوا له وظيفتين مهمتين.

الأولى: جلب انتباه المتلقي وشدة إلى الموضوع، ويتم ذلك بتوظيف أساليب مثيرة تناسب المقام.

الثانية: الإشارة أو التلميح بالاستهلال أو حسن الابتداء عما يحتويه النص كله(9).

---

(6) التلخيص، للقزويني، ص 2/ 423.

(7) جواهر البلاغة، احمد الهاشمي، ص 419.

(8) البديع في نقد الشعر، أسامة بن منقذ، ص 219، والمثل السائر، لابن الأثير: 3/ 304. وجواهر البلاغة، ص 420.

(9) ينظر: الوساطة، للجرجاني، ص 48، والمثل السائر: 3/ 304. وجواهر البلاغة ، 42. والاستهلال فن البدايات في النص الأدبي، ياسين النصير، ص 22-23.

والتحليل البلاغي لاستهلال السورة الكريمة يكشف عن تحقيق هذين الوظيفتين المهمتين، بل يكشف أن استهلال السورة له موقع يرتبط مع بقية آياتها على نحو عضوي وثيق. يقول احد النقاد المحدثين:

الاستهلال مبتدأ يستوجب خبرا، وإذا الغي الخبر لا يصبح للكلام مبتدأ. والخبر الجيد هو الذي يصاغ من فاعلية المبتدأ. وان المبتدأ الجيد لا يصبح مبتدأ إلا بخبره هو. ويعطينا هذا المبتدأ خاصية انتشار الاستهلال في بنية النص بما يشبه الماء في الكلمات. وما التكرار أو التردد الأسلوبي إلا الخبر للجملة الاستهلالية"(10).

ونحن نلحظ أن هناك تردداً أسلوبيا ولغوياً وإيقاعيا في المقطع الثاني الذي يمثل خبراً للمقطع الأول (الاستهلال) والذي يصور في ست آيات مشهداً من مشاهد يوم القيامة نعاين فيه عذاب (الهماز اللماز) ماديا ومعنويا، وقد انتشر هذا التردد الأسلوبي في المقطع الثاني على نحو جلي في أكثر من موضع من مواضع المقطع، بل نستطيع القول ان الاستهلال تحول داخل السورة الكريمة في مقطعها الثاني إلى علامة تلازم كل مفردات النص وعباراته وصوره وتشد السورة بعضها ببعض في مقطعها الأول الاستهلال (المبتدأ)، وختامها (الخبر) له، ومن علامات ذلك أن السورة قد لوحظ فيها "التقابل بين الجرم، وطريقة الجزاء وجوّ العقاب، فصورة الهُمَزة اللُّمزَة الذي يدأب صاحبها على الهزء بالناس وعلى لمزهم في أنفسهم وأعراضهم، وهو يجمع المال فيظنه كفيلا بالخلود، صورة هذا المتعالي الساخر المستقوي بالمال. تقابلها صورة (المنبوذ) المهمل المتروك في (الحطمة) التي تحطم كل ما يلقي إليها، فتحطم كيانه وكبرياءه، وهي النار (تطلّع) على فؤاده الذي ينبعث

(10) الاستهلال في البدايات في النص الأدبي: 22-23.

منه الهمز واللمز، وتكمن فيه السخرية والكبرياء والغرور. وتكملة لصورة المحطم المنبوذ المهمل، هذه النار مقفلة عليه، لا ينقذه منها احد، ولا يسال عنه فيها احد، وهو موثق فيها إلى عمود كما توثق البهائم بلا احترام" [11]. بل حتى أننا نلاحظ تردداً على صعيد الألفاظ والعبارات بشدتها، وعلى صعيد الإيقاع وعلى صعيد أساليب التوكيد والمبالغة، قال سيد – رحمه الله – :"وفي جرس الألفاظ شدّة" عددّه ... كلاّ....لينبذنّ.... تطلّع...مؤصدة، ممددة، وفي معاني العبارات توكيد: "لينبذن في الحطمة. وما أدراك ما الحطمة؟ نار الله الموقدة، التي تطلع على الأفئدة، وفي ذلك كله لون من التناسق التصويري يتفق مع فعله "الهمزة اللمزة... الذي يحسب أن ماله أخلده"[12].

(وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ * الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ)

وبنية هذا الاستهلال تنهض على ظواهر بلاغية متواشجة ولاسيما ظواهر من (علم المعاني) فقد تجمعت فيه على نحو لافت للنظر ومن أول كلمة فيه التي جاءت نكرة على سبيل الدعاء:

(وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَة)

ونـُكـّر الويل في الآية لأنه "لا يعلم كنهه إلاّ الله"[13]، ولكننا نعلم بأنها لفظة الذم والعذاب والسخط[14]، فنـَبّه بذلك على شدة قبح هذا الفعل (الهمز واللمز)، وهو فعلٌ مركب تجانست لفظتان جناساً غير تام في بيانه (همزة لمزة)، وبلاغة الجناس

---

(11) مشاهد القيامة في القرآن، سيد قطب، ص81.

(12) م. ن: ص81.

(13) التفسير الكبير: 11/ 283.

(14) التفسير البياني للقرآن الكريم، بنت الشاطئ : 2/ 169.

تشعرنا بتضايف بينهما وتواصل دلالي، وقد وردت أقوالٌ متقاربة في معنى (الهمزة واللمزة) وصورهما(15):

الهمزة: المغتاب. واللمزة: العياب.

الهمزة واللمزة: الذي يلقب الناس بما يكرهون.

الهمزة: الذي يهز جليسه يكسر عليه عينه. واللمزة: الذي يذكر أخاه بالسوء ويعيبه.

الهمزة واللمزة المشاؤون بالتميمة المفرقون بين الأحبة الناعتون للناس بالعيب.

والهمزة باليد، واللمزة باللسان.

الهمزة بالمواجهة، واللمزة بظهر الغيب.

الهمزة جهراً، واللمزة سراً بالحاجب والعين.

وجميع هذه الأقوال متقاربة راجعة إلى أصل واحد هو الطعن وإظهار العيب، الطعن في أعراض الناس والغض من شأنهم وتحقيرهم بشتى الأساليب والصور.

وتستقرئ بنت الشاطئ – رحمها الله – المادتين (الهمز واللمز) بيانياً في القرآن الكريم وتنتهي إلى أن "الهُمزة هو الذي يدأب على تحقير الناس وألا يغال في تجريحهم من خلف ظهورهم واللمزة الذي يدأب على مواجهتهم بكلمة السوء تحقيراً لهم وغضاً من شانهم"(16).

---

(15) ينظر: التفسير الكبير: 11/ 284.

(16) التفسير البياني للقرآن الكريم: 2/ 172.

وبذلك يكون الهمز للغائب، واللمز للحاضر، وسواء أكان باللفظ أم بالإشارة، بالرأس أم بالعين، وسواءً كان بالجدّ حسداً وحقداً أم سخرية وإضحاكاً إلى غير ذلك من الأساليب والصور. والمخطط الآتي يوضح فعل الهمزة اللمزة بأساليبه وصوره:

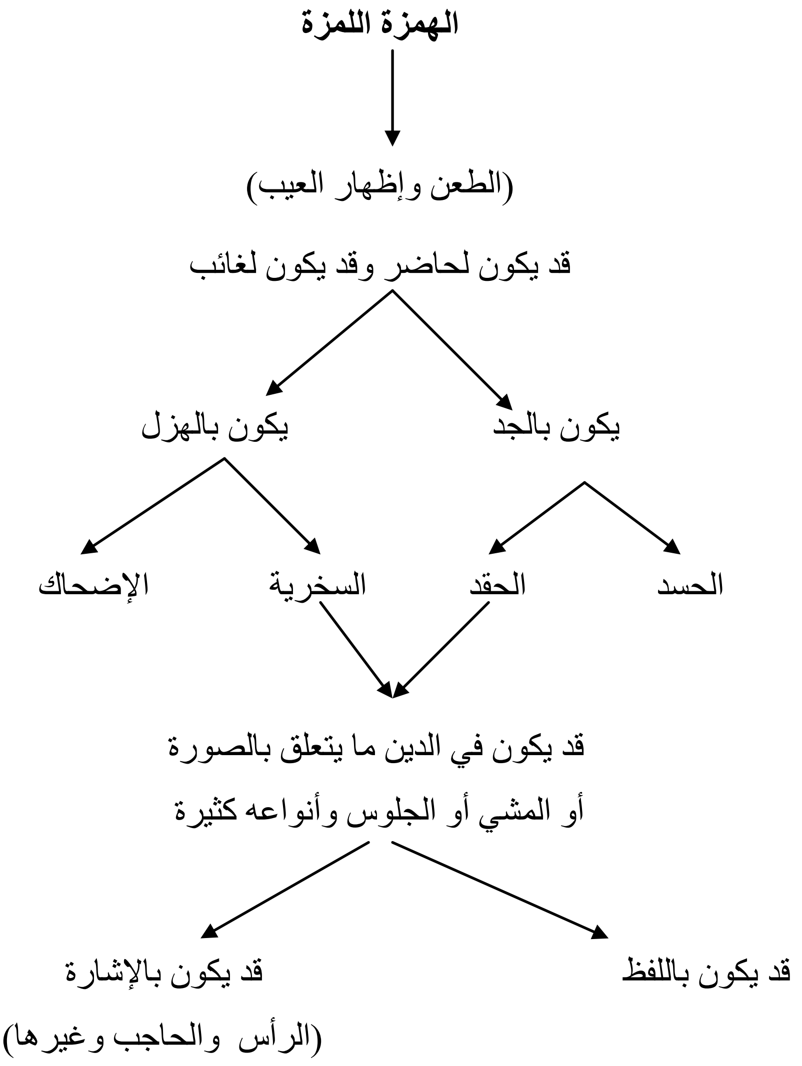

وأعظمه أثما الطعن في شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه أعظم الناس جميعاً. وهو ما يدأب عليه أعداء الدين قديماً وحديثاً في كل زمان ومكان، ولاسيما في زماننا هذا وعلى وجه الخصوص في تلك المجتمعات التي تدعي المدنية والتحضر زوراً وبهتاناً...

فالآية وإن كان لها خصوصية السبب في نزولها، إلا أن فيها دلالة العموم، فهي "وعيد عام لكل من يفعل هذا الفعل كائناً من كان وذلك لان خصوص السبب لا يقدح في عموم اللفظ" (17) فعم حكم الآية كل من يتخذ همز المسلمين ولمزهم صناعةً له وديدناً، ودل على ذلك بنية فـُعَلـَه (هُمَزة لـُمزَة) الدالة على كثرة صدور الفعل (الهمز واللمز) على وجه المبالغة مرتين، لأنه أُريدَ زيادة المبالغة في الوصف أُلحِق بها الهاء كما أُلحِقت في: علاّمة ورحالـّة، فيقولن:رجلٌ حُطـَمة وضـُحَكة ومنه همزة لمزة، وبهذه المبالغة الثانية دلالة على أن ذلك الفعل تفاقم منه حتى صار له عادة قد ضري بها (18). فالهمز واللمز وصفان قد تمكنا في هؤلاء المهددين بالعذاب، إذ أصبحا صناعة لهم وشغلاً شاغلاً للنيل من جماعة المسلمين ولصدّهم عن سبيل الله والدعوة إليه.

وبذلك تتجلى بلاغة القرآن في اختيار الألفاظ في الآية، اختيار الويل نكرة "ويلٌ" فهو ويل لا يعلم كنهه إلا الله عذاباً وسخطاً وذماً، ومن ثم اختيار بنية (فـُعَلـَة) "همزة لمزة" الدالـّة على المبالغة في الفعل، فناسبت هذه البنية التفكير في استهلال الآية من حيث الجزاء والعمل. بل سنلاحظ خاصية انتشار الاستلال في

---

(17) التفسير الكبير: 11/ 283.

(18) ينظر: الكشاف: 4/ 283.

بنية النص ولاسيما في المقطع الثاني من حيث التقابل بين الجرم وطريقة الجزاء وجوّ العقاب الشديد.

وتكشف الآية الثانية ببلاغتها وصفاً آخر يضيء لنا سبب الهمز واللمز وعلته لأولئك الموصوفين به:

(الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ)

وفُصلت هذه الآية عن التي قبلها لقوة الرابطة المعنوية بينهما بسبب تتابع الصفات لموصوف واحد هو كل (همّاز ولمّاز)، وبلاغة حذف الموصوف أفادت التعريض والتعميم، وأكد التعريض العام (كلّ) المضافة إلى الصفتين (الهمز واللمز)، فالآية غاية في إيجاز الحذف لأنه حقق مقصداً تعبيرياً بنظم موجز.

كما أشارت الآية بالوصف إلى سبب الهمز واللمز وعلته، قال الرازي: "وإنما وصفه الله تعالى بهذا الوصف لأنه يجري مجرى السبب والعلة في الهمز واللمز، هو إعجابه بما جمع من المال، وظنه أن الفضل فيه لأجل ذلك فيستنقص غيره"[(19)].

ويتكرر التنكير في الآية لفظة (مالاً)، وهو تنكير له معناه وقيمته البلاغية على سبيل التواشج مع التنكير للفظة (ويل) في استهلال السورة، فتنكير (مالاً) يعطينا وفرة معنى وتعدد دلالة فهو يفيد التنوع والكثرة لهذا المال، ممّا يجعله سبباً للهمز واللمز وعلة، ولذلك ذكر المفسرون معاني متعددة بمفهومات متنوعة، فغلب معنى المال بين:

---

(19) التفسير الكبير: 11/ 284.

أهل الخيام على (الإبل).

وأهل القرى الذين يتخذون الحوائط (البساتين) على (النخل).

وأهل مكة على (الدراهم) لأنهم أهل تجارة.

وهي معاني تشير – على وجه الإجمال – إلى مكاسب الإنسان التي تنفعه وتلبي حاجات حياته وما يتخذ منه ذلك كالأنعام والأشجار ذات الثمار المثمرة[20].

ويكن (المال) في سياق الآية اكتسب دلالة سلبية لمجيئه صفة (للهماز واللماز) الحريص على جمعه وعدّه، فتحول بذلك إلى فتنة تدفعه إلى الأثرة والتجبّر والخيلاء، وازدراء الناس وتحقيرهم والغضّ من شأنهم خفية وعلانية، من وراء ظهورهم وفي وجوههم، من حيث لا يعلمون أو يعلمون[21].

والتضعيف في (عدّه) يفيد الكثرة، أي مبالغة الهماز واللماز في عده، حتى أصبح العدّ له شغلاً شاغلاً معاودة وتكراراً، ومنهم من قرأ (جَمَع) بتشديد الميم (جَمَّع)[*]، ولهذا القراءة بلاغتها إذ تفيد أنه "جَمعه من ههنا وههنا، وأنه لم يجمعه في يوم واحد، ولا في يومين ولا في شهر ولا في شهرين، يقال: فلان يجمّع الأموال أي يجمعها من ههنا وههنا، وأمّا (جَمَع) بالتخفيف فلا يفيد ذلك"[22].

وتستقرئ بنت الشاطئ مادة (جمع) في القرآن وتنتهي إلى ملحظ بياني هو "الحشد مع الاختلاط... وبه نفهم آية الهمزة في جمع مال مختلط، والتلهي بتعديده

(20) ينظر: التحرير والتنوير: 30/ 538.

(21) ينظر: التفسير البياني للقرآن الكريم: 2/ 174.

(*) قرأ بذلك ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو جعفر وروبس عن يعقوب وخلف. ينظر النشر في القراءات العشر، ابن الجزري: 2/ 403.

(22) التفسير الكبير: 11/ 284.

إحصاءً وتكاثراً وأثرة"[23]. وبذلك يشعر الهماز واللماز أن ماله الذي جمّعه وتكلّف في جمعه وعدّه وبالغ في عدّه هو "القيمة العليا في الحياة. القيمة التي تهون أمامها جميع القيم وجميع الأقدار: أقدار الناس. وأقدار المعاني. وأقدار الحقائق. وانه وقد ملك المال فقد ملك كرامات الناس وأقدارهم بلا حساب، فيندفع إلى الاستهانة بأقدار الناس وكراماتهم. ولمزهم وهمزهم. يعيبهم بلسانه ويسخر منهم بحركاته، سواء بحكاية حركاتهم وأصواتهم، أو بتحقير صفاتهم وسماتهم... بالقول والإشارة، بالغمز واللمز. باللفتة الساخرة والحركة الهازئة"[24].

ويخطيء الهماز اللماز في حقيقة التقدير والحسبان فـ:

(يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ)

وبلاغة الآية بما فيها من عدول يحقّق مستويات متعددة من المعنى، عدول عن التعبير بالمضارع (سيخلده) إلى التعبير بالماضي "أخلده" الدال على أن الهماز اللماز قد حصل له الخلود وثبت – كما يحسب – الذي جمعه وعدده، ونظم الآية يحتمل بعد ذلك دلالات متعددة متأتية من إمكانية توجيهه توجيهات متعددة وهذه خاصية يتميز بها التعبير القرآني الكريم في بلاغته، كلها جائزة في الفهم للوقوف على المعاني من ذلك[25]:

- أن تكون الآية مستعملة في التهكم من الهماز اللماز والسخرية منه بسبب حرصه على جمع المال وتعيده، لأنه لا يوجد من يحسب أن المال يخلده.

---

(23) التفسير البياتي للقرآن الكريم: 2/ 174.

(24) في ظلال القرآن: 6/ 3972.

(25) ينظر: التحرير والتنوير: 30/ 539.

- أن تكون الآية تشبيهاً، أي تشبيه حال من جمع المال بحال من يحسب ان المال يقيه الموت ويجعله خالداً.
- أن تكون الآية تهكماً من الهماز اللماز وتعجيباً منه، إذا قدّرنا استفهاماً بالهمزة محذوفا (أيحسب أن ماله أخلده)
- ان تكون الآية مستأنفة والخبر مستعملاً في الإنكار.

وكل هذه المعاني (التهكم والسخرية والإنكار والتعجيب) مستفادة من نظم الآية البليغ، فضلاً عن فهم الآية على سبيل التعريض "تعريض بالعمل الصالح وأنه هو الذي يخلد صاحبه في الدنيا بالذكر الجميل وفي الآخرة في النعيم المقيم" (26)، وليس المال الذي يحرص عليه الهماز اللماز بخلا به وتفاخرا، فيتوهم ويخطئ حقيقة التقدير في الحساب.

المقطع الثاني

يتكون من الآيات الست الباقية في السورة الكريمة:

(كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ * نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ * إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ)

هذا المقطع يمثل خبرا للمقطع الأول (الاستهلال) الذي تحول في هذا المقطع إلى علامة تلازم كل مفرداته وعباراته وصوره وتشد السورة بعضها ببعض ولاسيما ذلك التقابل بين الجرم، وطريقة الجزاء وجو العقاب على صعيد الألفاظ والعبارات والصور والإيقاع وأساليب التوكيد والمبالغة، وجاءت بنية هذا المقطع

---

(26) التفسير الكبير: 11/ 285.

على سبيل الإطناب في عرض عذاب الهماز اللماز أي بضعف المقطع الأول الذي بني على ثلاث آيات في حين بني هذا المقطع على ست آيات، وفي ذلك بلاغة ينطوي عليها هذا الإطناب ذات بعد نفسي رادع للسامعين، لان هذا التفصيل والتطويل في عرض عذاب الهماز اللماز يحقق هذا المقصد القرآني في نفوس المخاطبين، وقد عمقت الظواهر البلاغية المتنوعة هذا المقصد والتي تشكلت في نسيجه على نحو بليغ ومن أول آية فيه بل أول حرف:

(كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ)

"كلا" ردع وزجر للهماز اللماز عن حسابه أن المال يخلده،ويحتمل الحرف (كلا) ان يكون بمعنى "حقا"، قال الرازي: "كلا فيه وجهان، احدهما: انه ردع عن حسبانه، أي ليس الأمر كما يظن أن المال يخلده بل العلم والصلاح، والثاني معناه: حقا لينبذن"[27].

والبادي أن المعنيين مقصودان متلازمان في هذا السياق، لان الحرف "كلا" ردع وإبطال الشيء في الكلام الذي يسبقه، أي إبطال أن يكون المال سببا لخلوده، وكذلك إبطال لحرصه في جمع المال جمعا يمنع به حقوق الله وحقوق الناس، ثم عقبت "كلا" بكلام يوضح ما أجملته من الردع والإبطال (لينبذن في الحطمة)[28].

ومن ثم فان الآية الكريمة "كلا لينبذن في الحطمة" تعد استئنافا بيانيا، وهو ما يسمى بشبه كمال الاتصال [*] وقيمته البلاغية تتجلى في تماسك الجمل في النص

(27) التفسير الكبير: 11/ 285.

(28) ينظر: التحرير والتنوير: 30/ 539.

(*) شبه كمال الاتصال: هو من المواضع الموجبة للفصل بين الجمل ومعناه ان يأتي جوابا عن سؤال تثيره الجملة السابقة.

فهو قوة رابطة معنوية بين المقطع الأول والثاني، فالثاني جاء جواباً عن سؤال أثاره الأول، وقوة الرابطة بين الجواب والسؤال أوجبت الاستغناء عن الوصل، ما جواب من يحسب حساب الهماز اللماز؟ فجاءت الآية جوابا عنه. وقد نهضت الاستعارة التصريحية المؤكدة باللام (لينبذن) بتصوير العذاب المعنوي له في حين جلت (الحطمة) عذابه المادي على نحو فريد وبمناسبة دقيقة يلحظ فيها التقابل بين الجرم والجزاء، فالنبذ هو: الإلقاء والطرح، وأكثر استعماله في إلقاء ما يكره [29] قال الزمخشري مبيناً أجراء هذه الاستعارة "شبههم استحقاراً لهم بحَصَيات أَخذَهُن آخِذٌ بكفّه فطرحهن" [30]، فالقيمة البلاغية للاستعارة تتكثف في دلالة الإهانة له والتحقير، كما كان يحتقر الناس ويزدريهم، فها هو الهماز اللماز المتفاخر المتعالي بالاستعارة مهانا محتقرا ذليلا، وهاهو أيضا كما كان يطعن بإعراض الناس لتحطيمهم بإظهار عيوبهم يواجه عذاب "الحطمة" وما ابلغ استعمال القرآن النار باسم الحطمة في هذه السورة وعلى غرار وزن "همزة لمزة" وفي ذلك من التناسب البليغ المقصود مالا يخفى فـ "التحطيم: التكسير، وأصابتهم حَطْمَةٌ، أي سَنَةٌ وجَدْبَ. والحُطَمَة على وزن فعَلَةَ، ويقال: رجلٌ حَطَمَةَ، للكثير الأكل، ورجلٌ حَطَمٌ وحَطَمَةُ أيضا، إذا كان قليل الرحمة للماشية يَهشِمَ بعضها ببعض.... ويقال للعسكرة من الإبل حطَمة، لأنها تحطم كل شيء.... والحَطامُ: ما تكسر من اليَبس"[31].

فمن دلالات (الحطمة) التكسير والدق والتحطيم بعنف وقسوة، وان إطلاق هذا الوصف على نار جهنم لهو "من مبتكرات القرآن ومصطلحاته إذ ليس في كلام

(29) ينظر: التحرير والتنوير: 30/ 540.

(30) الكشاف: 4/ 454.

(31) الصحاح، للجوهري: 5/ 1900-1901 (حطم)

العرب إطلاق هذا الوصف على النار [32]. فهي نار تحطم العظام وتأكل اللحم، وتحطم كل ما يلقى فيها كالرجل الأكوال الحطمة[33]. فالجزاء من جنس العمل، فهو اتحاد في الصورة والمعنى: "إنْ كنت همزة لمزة فوراءك الحطمة، وان الهامز بكسر عين ليضع قدره فيلقيه في الحضيض فيقول تعالى: وراءك الحطمة، وفي الحطم كسر فالحطمة تكسرك وتلقيك في حضيض جهنم، ولكن الهمزة ليس إلا الكسر بالحاجب، أمّا الحطمة فإنها تكسر كسراً لا تبقي ولا تذر"[34]، بل السياق القرآني يهوّل من شأن الحطمة ويفخّم:

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ)

ونظم الآية بظواهره البلاغية يهول من شان الحطمة ويفخمها، فالإظهار في مقام الإضمار هو عدول عن الأصل (وما أدراك ما هي) يهوّل من شان الحطمة ويظهرها ترويعاً وتخويفاً للسامعين، وقبل ذلك فان الاستفهام بـ(ما): (وما أدراك) سؤال تجهيل لشانها وحقيقتها، وذلك ليذهب السامع بنفسه وعقله كلّ مذهب في تصورها، فبلاغة هذا الأسلوب وقيمته البيانية تتمثل في استعماله فيما يجاوز دراية المسؤول[35] فهي عذابٌ عظيم لا يعلم كنهه الاّ الله، لذلك وصفت بالإضافة:

(نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ)

والإضافة هذه أفادت تخيماً فوق تفخيم، وتهويلاً فوق تهويل، فهي ليست كسائر النيران، فهي نار أوقدها الله فلا تخمد أبدا، فالآية الكريمة بالإضافة بيان

---

(32) ينظر: التحرير والتنوير: 30/ 540.

(33) ينظر: الكشاف: 4/ 284.

(34) التفسير الكبير: 11/ 285.

(35) ينظر: التفسير البياني للقرآن الكريم: 2/ 178.

وتوضيح لماهية الحطمة، وإنذار شديد للسامعين، وعلى وجه الخصوص إنذار للهمزة اللمزة، فمع كثرة استعمال النار في القرآن لم تأت مضافة إلى الله تعالى إلا في هذه السورة. وبذلك فان الإضافة تشهد بفداحة النكْر للهماز اللماز المفتون بالمال وما يغري به من تكبر وبغي وعدوان وضلال(36)، ومن بلاغة الآية وصف النار بأنها موقدة، والنار بذاتها موقدة، وما ذلك إلا توكيد يحقق دلالة الالتهاب الدائم أي بأن لهيبها لا يخمد ومن ثم يتحقق بها الإنذار الشديد والوعيد، وفضلا عن كون هذه النار لا يخمد لهيبها فان لها خاصية أخرى عجيبة، تجليها الآية بنظم بليغ يحتمل أكثر من معنى وبطريقة التشخيص:

(الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ)

فالاطلاع معناه الإتيان مبالغة في طلع، أي الإتيان السريع بقوة واستيلاء، فهي تنفذ إلى الأفئدة فتحرقها، والاطلاع أيضا هو الكشف والمشاهدة، فهي تحرق الأفئدة إحراق العالِم بما تحتوي عليه الأفئدة من الكفر فتصيب كل فؤاد بما هو كفاؤه من شدة الحرق على حسب مبلغ سوء اعتقاده (37). وبذلك فإن في الآية تشخيصاً للنار من خلال إسناد الاطلاع إليها، والتشخيص هو إضفاء سمات إنسانية على الجمادات والعوالم غير العاقلة فإذا هي نابضة بالحركة والحياة (38). فالنار الموقدة بفاعلية التشخيص لها خاصية العلم بأحوال المعذبين فيها، بل إن القرآن الكريم يجلّي ببلاغته صورة كاملة مفزعة رهيبة عن جهنم في آيات عدة على سبيل التشخيص من ذلك قوله تعالى (وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ *

---

(36) ينظر: التفسير البياني للقرآن الكريم: 2/ 178.

(37) ينظر: التحرير والتنوير: 30/ 541.

(38) ينظر: التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، ص 62. وينظر: التصوير البياني، د. محمد أبو موسى، ص 276.

إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ * تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ...)
(سورة الملك: 6 - 8) فجهنم هنا مغتاظة غاضبة على الكافرين، بل جهنم ترى الكافرين المعذبين فيها من بعيد للإيقاع بهم في قوله تعالى: (بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً * إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً) (سورة الفرقان: 11 - 12) فهي هنا متحفزة تنتظرهم على غيظ وحنق، بل لجهنم خاصية أخرى جديدة هي (الحوار) تزيد صورة جهنم تأثيرا وفاعلية وهولاً حيث تسأل فتجيب بشراهة وظمأ لا يعرف الاكتفاء في قوله تعالى: (يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ) (سورة قّ:30) ، وفي أية أخرى جهنم تتكلم وتدعو الكافرين فلا يفلت منها احد (كَلَّا إِنَّهَا لَظَى * نَزَّاعَةً لِلشَّوَى * تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى * وَجَمَعَ فَأَوْعَى) (المعارج: 15 - 18).

وفي هذه السورة الكريمة جهنم "تطلـّع على الأفئدة" وهو تعبير مقصود يجلـّي تقريراً لفاعليتها يعمل على بثّ الخوف والهلع في القلوب والنفوس.

(إِنَّـهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ)

وتظهر السورة صفة أخرى لنار الله الموقدة على سبيل التوكيد بـ (إنّ) توكيد الوعيد بها والتهويل، فضلاً عن تقديم الجار والمجرور (عليهم) على (مؤصدة)، وهو تقديم لا يردا منه رعاية الفاصلة فحسب وإنما لتحقيق نكتة بلاغية مقصودة.

ومؤصدة: مُطـْبَقـَةٌ من أوْصَدْتُ الباب وآصَدْتـُه إذا أغـْلقـْتـه"[39].

وفرق دلالي بين (مَطبقة)، والتعبير القرآني (مؤصدة)، لأن المؤصدة هي الأبواب المغلقة، والإطباق لا يفيد معنى الباب، والباب يذكرهم الخروج، فيزيد في

(39) الصحاح: 2/ 550 (وصد).

حسرتهم [40]، ثم أن تقديم الجار والمجرور (عليهم) يفيد بلاغة تتمثل في ان "المقصود أولا كونهم بهذه الحالة، ومؤصدة عليهم لا يفيد هذا المعنى بالقصد الأول"[41]، والتعبير بالجار والمجرور (عليهم) بخاصة يفيد بلاغة الإطباق الملاصق المباشر، ولا يقوم مقامه (فوقهم) مثلاً، لاحتمال أن تكون الفوقية غير ملاصقة ولا مطبِقة ملابِسة [42] وإذا كان العذاب بهذه الصورة التي جلتها الآية، فمن الممكن ان نعدّ الآية كناية تشير إلى معنى ملازمتهم للعذاب وأسهم من الإفلات منه، ومن ثم نلمح تشبيهاً ضمنياً خفياً في إطار هذا التعبير الكنائي يستمد التشبيه فيه صورته مما تعارف عليه الناس في حياتهم الدنيا، فحال هؤلاء المعذبين في النار "كحال المساجين الذين أغلق عليهم باب السجن تمثيل تقريب لشدة العذاب بما هو متعارف في أحوال الناس، وحال عذاب جهنم أشدّ مما يبلغه تصوّر العقول المعتاد"[43].

وبذلك فان التعبير القرآني ببلاغته المعجزة ينطوي على خاصية تعبيرية تتمثل في وفرة المعنى وتعدد الدلالة فضلاً عن تقريب هذه الدلالات بالصور المؤثرة في حس المخاطب وعقله لإحداث الاستجابة النفسية المقصودة هي الترهيب من هذه النار الموقدة التي تظهرها السورة بصفات غاية في التخويف والترهيب، وتختم السورة أيضا بصفة أخرى جديدة وبالخصائص التعبيرية والتصويرية نفسها مع تصعيد عذاب المعذَّبين فيها:

---

(40) ينظر: التفسير الكبير: 11/ 286.

(41) التفسير الكبير: 11/ 286.

(42) ينظر: التفسير البياني للقرآن الكريم: 2/ 181.

(43) التحرير والتنوير: 30/ 541.

(فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ)

إنها نارٌ في عمد ممدة، وممدّدة اسم مفعول من مددّه، إذا بالغ في مدّه [(44)]، فهي عمد طويلة جداً تتوسطها نارٌ موقدة. أمّا كيف يعذّبون بها فإن الآية الكريمة ببلاغتها تجعلنا نتصوّر أكثر من كيفية لعذابهم فيها، صورة نراهم فيها وهم موثوقون إلى هذه العمد الممدة مربوطون بها كما تربط الدواب يعانون عذابها ولهيبها وهذه صورة من العذاب والإذلال والمهانة، ليس بعدها صورة. وكيفية أخرى لعذابهم من الممكن تصورها تتحدد أطرافها مما تعارف عليه الناس في حياتهم الدنيا في نار الشواء، وذلك على سبيل التشبيه الضمني الخفي كالآية السابقة، إذ توضع عَمد وتجعل النار تحتها للشواء [(45)]، ولاشك ان في هذه الصورة من الإغلاظ بالعذاب فضلاً عن ترهيب السامعين وتخويفهم من الإيقاع به، وهذا مقصد من مقاصد القرآن في الترهيب من هذه النار الموقدة.

ومن ثم نلحظ بعد أن جلت هذه الآيات العذاب الشديد المادي والمعنوي للهماز اللماز بلاغة حسن الاستهلال" ويلٌ لكل همزة لمزة" بحسن الختام بآياته التي جلّت غلظ العذاب بنوعيه في **(نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ * إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ)** إذ كشفت هذه الآيات دلالة "ويل" في استهلال السورة التي جاءت نكرة فدلّت على شدة عذاب وسخط وذم وقد صورّت آيات المقطع الثاني في هذا العذاب بأغلظ صوره، وبذلك نلحظ شدة الترابط والتلاحم بين استهلال السورة وختامها بين المبتدأ (المقطع الأول) والخبر (المقطع الثاني).

أما على صعيد فواصل السورة الكريمة في مقطعيها فنلاحظ:

---

(44) التحرير والتنوير: 30/ 542.

(45) ينظر م. ن : 30 / 542.

انفردت الآية الأولى في المقطع الأول بآياته الثلاث:

(وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ * الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ)

بحرف الزاي في الفاصلة (لمزة)، وقد سبقتها كلمة (همزة) المميزة بصوت الزاي أيضا على سبيل الجناس غير التام، وحرف الزاي المكرر هو انسب حرف يلاءم تصوير فعل الهمز واللمز سواء أكان الطعن في الناس وتحقيرهم في الغيب أم في الوجه، فهما صفتان متلازمتان، فحرف الزاي المكرر يعمّق صدى إيقاعي للفعل (أز) والأز لغة: الحث على ان تحمل إنسانا على أمر حتى يفعله[46] وهذا المعنى يعبّر عن حقيقة كامنة في نفس الهماز واللماز الذي يشعر بعدم التوازن النفسي نتيجة الاستفزاز الباطني الذي يمارسه الشيطان عليه في الحث على همز الناس ولمزهم.

كما نلاحظ تكرار حرف (الدال) في الفاصلتين (عدده) و (أخلده)، والدال هو صوت شديد مجهور [47] عند النطق به يلتقي طرف اللسان بأصول الثنايا العليا التقاء محكماً، وتكراره (الدال) بشدته المعهودة وقوته يوحي بدلالة الإمساك بالشيء والتعلـّق به بقوة وشدة. بل الشدة والقوة ملحوظة حتى في فواصل (المقطع الثاني) الست على نحو أشد وأقوى:

الحطمة، الموقدة، الأفئدة، مؤصدة، ممددّة. فحرف (الدال) يتكرر أربع مرات ويشتد ضغطه وقوته، فضلا عن أن انتهاء الفواصل بحرف (التاء) حيث تـُسكـَّن الفاصلة، نشعر بصوت يؤدي إيقاعا ووقعاً يستمد من عمق المحتوى وهوله[48].

---

(46) ينظر: لسان العرب: 5/ 307-308 (أزز).

(47) ينظر: الرعاية، مكي بن أبي طالب القيسي ص 175.

(48) ينظر الإعجاز الفني في القرآن، د. عمر السلامي، ص 258، وينظر: الجناس في القرآن الكريم، رسالة ماجستير، أسماء سعود الخطاب، مقدمة إلى كلية الآداب، جامعة الموصل، بإشراف الدكتور احمد فتحي رمضان، ص 160.

الخاتمة والنتائج

- السورة تقدم نمطاً من أنماط الأذى الكثيرة التي كان يتعرض لها المؤمنون، فهي تمثل حرباً نفسية كان يشنها المشركون ومازالوا تجاه المسلمين لزعزعة إيمانهم وخلخلة نفوسهم، فيشن القران حرباً نفسية ومادية تحطم كيانهم وتخلخل مكانتهم انتصاراً للمسلمين، تعرض السورة ذلك بأساليب متنوعة تحمل قيما بلاغية مؤثرة.
- الفنون البلاغية المتنوعة في السورة هي ليست فنوناً تجريدية تراد لذاتها وإنما هي دلائل استكشاف الجمال التعبيرية في السورة الكريمة. وقد كان لهذه الفنون دور في أداء المعاني والأفكار بحيوية وقوة تأثير في المخاطب.
- بين البحث بلاغة حسن الاستهلال في السورة تعبيراً وتصويراً ومدى مناسبته للمقام بحيث يجذب السامع إلى الإصغاء بكليته، فضلا عن تلميحه لما يحتويه النص بأكمله، وبذلك تتجلى شدة الترابط والتلاحم بين استهلال السورة وختامها، بين المبتدأ (المقطع الأول)، والخبر (المقطع الثاني).
- لحظ البحث على صعيد الفواصل تكرار حرف (الدال) وهو صوت شديد مجهور وتكرار هذا الحرف بشدته المعهودة وقوته أوحى بدلالات ناسبت السورة مناسبة دقيقة، فضلاً عن تكرار حرف (الزاي) في (همزة لمزة) الذي ناسب فعل الهمز واللمز مناسبة بليغة وهما محور السورة الذي تعالجه.

Abstract

On Surat Al-Humaza Rhtoric Study

Dr. Ahmad Fathi Ramadan(*)

This paper deals will some verses in “Surat Al-Humaza” in Quran. It rackes different styles in this Sura mainly which deal with form and meaning, the aesthetic and artistic sides of these styles. Finally it gives the reader a good idea of the rhetoric values of these aspects of the Sura.

(*) Dept. of Arabic - College of Arts / University of Mosul.